وقفات رمضانية

رمضان شهر البر

الحمد لله مُعزٍّ من أطاعه، ومُذلٍّ من عصاه، والصلاة والسلام على رسول اللهَ وعلى آله وصحبهَ ومن والاه، أما بعد:

فقد عَلمنا في الحديث الماضي عِظم حق الوالدين، والترغيبَ في برهما، وَالترهيبَ من عقوقهما.

ومر شيءٌ من مظاهر العقوق وصورِهِ؛ فإذا كان الأمر كذلك فما أحرى بِذي اللب أن يبر والديه، وأن يتجَنّب عقوقهما؛ لينال الخيرَ والبركة في العاجل، وليحظى بالثواب الجزيل والعطاءِ غيرِ المجذوذ في الآجل.

أيها الصائمون: هناك آداب ينبغي لنا مراعاتها، ويجدر بنا مع الوالدين سلوكها؛ لعلنا نرد لهما بعض الدين، ونقوم ببعض ما أوجب الله علينا نحوهما؛ لنرضيَ بذلك ربنا، وتنشرحَ صدورنا، وتطيبَ حياتنا، وَتُيَسَّرَ أمورُنا، ويبارك لنا في أعمارنا، ويبسَط لنا في أرزاقنا.

فمما يجدر بنا سلوكه مع الوالدين طاعتُهما، واجتنابُ معصيتهما في غير مخالفة لأمر الله.

ومن ذلك الإحسانُ إليهما، وخفضُ الجناح لهما، والبعدُ عن زجرهما.

ومن صور البرِّ الإصغاءُ إلى الوالدين، وذلك بالإقبال عليهما إذا تحدثا، وترك مقاطعتهما أو منازعتِهما الحديث أو تكذيبهما.

ومن الآدابَ مع الوالدين التلطف بهما، والفرحُ بأوامرهما، والحذر من التأفف والتضجرِ منهما.

ومن ذلك - أيضا - التودُّدُ لهما، والتحبُّب إليهما، والجلوس أمامهما بأدب واحترام، وتجنُبُ المنّة في الخدمة أو العطية.

ومن صور البر مساعدةُ الوالدين في الأعمال، والبعدُ عن إزعاجهما وقتَ راحتهما، أو تكديرِ صفوهما بالجلبة، ورفعِ الصوت، أو بالإخبار المحزنة.

ومن ذلك تجنبُ الشجار، وإثارة الجدل أمامهما، وذلك بالحرص على حل جميع المشكلات مع الإخوة أو الزوجة أو أهل البيت عموماً، بعيداً عن أعين الوالدين إلا إذا اقتضت الحكمةُ والمصلحةُ إشراكَهما في الأمر.

ومن صور البر تلبيةُ نداء الوالدين بسرعة، والاستئذان عليهما حال الدخول عليهما وإصلاحُ ذات البين إذا فسدت بين الوالدين، والحرصُ على التوفيق بينهما وبين الزوجة، وتعويد الأولاد على برهما.

ومن صور البر تذكيرُ الوالدين بالله، ونصحُهما بالتي هي أحسن.

ومن برهما - أيضاً - الاستئذانُ منهما، والاستنارةُ برأيهما، والمحافظةُ على سمعتهما، والبعدُ عن لومهما وتقريعهما.

ومن ذلك فهمُ طبيعة الوالدين، ومعاملتهما بمقتضى ذلك.

ومن البر بهما كثرةُ الدعاء والاستغفارِ لهما، وصلةُ الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإنفاذ عهدِهما، والتصدُّق عنهما.

ومما يعين على بر الوالدين أن يستعينَ الإنسانُ بالله، وأن يستحضر فضائلَ البر، وعواقبَ العقوق، وأن يستحضر فضل الوالدين، وأن يضع نفسه موضعهما، وأن يقرأ سير البارين بوالديهم.

أيها الصائمون: هاهو بر الوالدين، وهذه هي الآداب التي يجدر بنا مراعاتها معهما، وتلك أسباب تعين على البر، فما أحرانا بمراعاة تلك الأمور، وما أجدرنا، بالأخذ بها، وإليكم معاشر الصائمين بعضَ النماذج من قصص البر:

هذا إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - يضرب أروع أمثلة البر في تاريخ البشرية، وذلك عندما قال له أبوه: «يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ». فما كان من ذلك الولد الصالح إلا أن قال: «يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ»«الصافات: من الآية102».

وقد ورد أن إبراهيم - عليه السلام - لما تيقَّن مما رأى في منامه قال لابنه: يا بني خُذ الحبل والمُدية، وانطلق بنا إلى هذا الشعب نحتطب، فلما خلا به في شعب ثبير أخبره بما أمره الله به، فلما أراد ذبحه قال له: يا أبت اشدد رباطي؛ حتى لا أضطرب، واكفُف ثيابك؛ حتى لا يصيبَها الدَّمُ فتراه أمي، واشحذ شفرتك، وأسرع في السكين على حلقي؛ ليكون أهونَ علي، وإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني.

قال إبراهيم: نعم العونُ أنت يا بني، ثم أقبل عليه، وهما يبكيان، ثم وضع السكينَ على حلقه، فلم تحز، فشحذها مرتين أو ثلاثا بالحجر فلم تقطع.

فقال الابن عند ذلك: يا أبت كُبَّني على وجهي؛ فإنك إن نظرت إلى وجهي رحمتني، وأدركتك رَقّة تحول بينك وبين أمر الله - تعالى - وأنا لا أنظر إلى الشفرة؛ فَاجزع.

ففعل إبراهيم ذلك، ووضع السكين على قفاه، فانقلب السكين، وسلبت منها خاصيتها، ونودي «أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا» «الصافات: الآية 104».

وإليكم أيها الصائمون صوراً مشرقة في البر من سير السلف الصالح، تدل على شدة اهتمامهم ببر الوالدين.

فهذا أبو هريرة رضي الله عنه كان يستخلفه مروان، وكان يكون بذي الحليفة، فكانت أمه في بيت وهو في بيت آخر، فإذا أراد أن يخرج وقف على بابها وقال:السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فتقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فيقول: رحمك الله كما ربيتني صغيراً، وتقول: ورحمك الله كما بررتني كبيراً.

وهذا ابنُ عمرَ - رضي الله عنهما - لقيه رجل من الأعراب بطريق مكة، فسلم عليه عبد الله بن عمر وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه.

قال ابنُ دينار: فقلنا له أصلحك الله إنهم الأعراب، وهم يرضون باليسير.

فقال عبدُ الله بنُ عمرَ: إن أبا هذا كان وُدّاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإنيَ سمعت رسول الله يقول: إن أبرَّ البرِّ صلةُ الولد أهلَ ودِّ أبيه. رواه مسلم وأبو داود.

وهذا أبو الحسن عليُّ بنُ الحسين بن عليِّ بن أبي طالب -وهو المسمى بزين العابدين وكان من سَاداتَ التابعيّن - كان كثير البر بأمه، حتى قيل له: إنك من أبر الناس بأمك، ولا نراك تؤاكل أمَّك؛ فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى ما قد سبقت عينها إليه، فأكون قد عققتها.

وقال هشام بنُ حسان: حدثتني حفصةُ بنتُ سيرين قالت، كانت والدة محمد بن سيرين حجازية، وكان يعجبها الصِّبغ، وكان محمد إذا اشترى لها ثوبا اشترى ألين ما يجد، فإذا كان عيدٌ صَبَغ لها ثياباً، وما رأيته رافعاً صوته عليها، وكان إذا كلمها كالمصغي.

وعن بعض آل سيرين قال: ما رأيت محمد بن سيرين يكلم أمه قط إلاوهو يتضرع.

وروى جعفر بن سليمان عن محمد بن المنكدر أنه كان يضع خدَّه على الأرض ثم يقول لأمه: قومي ضعي قَدَمَك على خدي.

وقيل لعمرَ بن ذرٍّ: كيف كان بر ابنك بك؟ قال ما مشيت نهاراً قط إلامشى خلفي، ولا ليلاً إلا مشى أمامي، ولا رقى سطحاً وأنا تحته.

صادق يخاف عذاب ربه، ويخشى عقابه، ويهرب من نار تلظى، حري به أن يقوم هذه الليالي، ويعتكف فيها بقدر استطاعته، تأسياً بالنبي الكريم، نبي الرحمة والهدى صلى الله عليه وسلم، فما هي إلا ليالي عشر، ثم ينقضي شهر الخير والبركة، شهر الرحمة والمغفرة، والعتق من النار، ما هي إلا ليالي معدودات، ويرتحل الضيف العزيز، الذي كنا بالأمس القريب ننتظره بكل فرح وشوق، وبكل لهفة وحب، وها نحن في هذه الليالي المباركات ليالي النفحات الربانية الكريمة، نتأهب جميعاً لتوديعه، والقلوب حزينة على فرقاه، والنفوس يملؤها الحزن والأسى على مغادرته وارتحاله، ولا ندري أيكون شاهداً لنا أم شاهداً علينا، فقد أودعناه كل عمل لنا، ونسأل الله تعالى أن يتقبل منا صالح الأعمال والأقوال، وأن يتجاوز عن سيئها وسقيمها، إنه رباً براً رحيماً غفوراً.

فليحرص الجميع على أداء صلاتي التراويح والتهجد جماعةً في بيوت الله تعالى طمعاً في رحمته، وخوفاً من عذابه، كما يحرص الواحد منا على جمع ماله، فكم هم الناس اليوم الذين نجدهم حول آلات الصرف الآلي، وكم هم الناس اليوم الذين نجدهم على الأرصفة، وحول شاشات التلفاز، والفضائيات، متحلقين وقد غشيتهم السكينة، وهدأت منهم الحركات، فهم جمود لا يتكلمون، وأسرى شاشات لا يُطلقون، وكلهم مسيئون ومذنبون، والعياذ بالله، فهل من عودة صادقة لدين الله تعالى، وهل من مراجعة للنفس، قبل أن يداهمها ملك الموت، فتقضي نحبها ولا تدري ما الله فاعل بها، لا بد ان نعرض أنفسنا على كتاب ربنا، وسنة نبينا فهما ميزانا العدل والحق، فحاسبوا أنفسكم في هذه الدنيا ما دام انكم في دار المهلة، فاليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل، حاسبوا أنفسكم قبل ان تحاسبوا، فهي عشر ليالي نتطلع فيها جميعاً لرحمة أرحم الراحمين، لعلنا أن نكون فيها من الصائمين المحتسبين، ومن القائمين الوجلين، وليلة القدر لا تخرج بحال عن ليلة من إحدى تلك الليالي فعلينا أن نجتهد ونخلص العمل لله تعالى رجاء الحصول على ليلة القدر، فمن وفق فيها للقيام والعمل الصالح، ومن ثم نالها فقد وقع أجره على الله تعالى، بمغفرة ما تقدم من ذنوبه، وكل ابن خطاء، وكل الناس صاحب خطأ وزلل، وذنب وخطيئة، فعلينا أن نصبر ونصابر ونرابط في هذه الليالي المباركات، لعلنا أن ندرك ليلة القدر، فيغفر الله لنا ما تقدّ من ذنوبنا، فنفوز برضى الرب تبارك وتعالى.

وهذه العشر هي ختام شهر رمضان، والأعمال بالخواتيم، ولعل أحدنا أن يدرك ليلة القدر وهو قائم يصلي بين يدي ربه سبحانه وتعالى، فيغفر الله له ما تقدم من ذنبه.

وعلى المسلم أن يحث أهله وينشطهم ويرغبهم في قيام هذه الليالي للاستزاده من العبادة، وكثرة الطاعة وفعل الخير، لا سيما ونحن في موسم عظيم، لا يفرط فيه إلا محروم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول لأصحابه: «قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، كتب الله عليكم صيامه، فيه تفتّح أبواب الجنة، وتغلق أبواب الجحيم، وتغل الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم» [أخرجه أحمد والنسائي]، وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعاً: «أتاكم رمضان، شهر بركة، يغشاكم الله فيه، فينزل الرحمة، ويحط الخطايا، ويستجيب فيه الدعاء، ينظر إلى تنافسكم فيه، ويباهي بكم ملائكته، فأروا من أنفسكم خيرا، فإن الشقي من حرم فيه رحمة الله» [أخرجه الطبراني ورواته ثقات].

فتنافسوا عباد الله في طاعة ربكم، وأروا ربكم منكم خيراً، وارباؤوا بأنفسكم عن مواطن الريب والشك، واحذروا من الوقوع في الذنوب والمعاصي فكل مؤاخذ بما فعل، وبما قال، قال تعالى: «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» [ق 18]، وقال تعالى: «ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه» [يونس 61].

وورد عن بعض السلف الاغتسال والتطيب في ليالي العشر تحرياً لليلة القدر التي شرفها الله ورفع قدرها.

ولهذا ينبغي أن يتحراها المؤمن في كل ليالي العشر عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم: «التمسوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان» [متفق عليه]، وقد أخفى الله عز وجل علمها، حتى يجتهد الناس في العبادة في تلك الليالي، ويجدوا في طلبها بغية الحصول عليها، فيظنون أنها في كل ليلة، فترى الكثير من الناس في تلك الليالي المباركة ما بين ساجد وقائم وداع وباك، فاللهم وفقنا لقيام ليلة القدر، واجعلها لنا خيراً من ألف شهر، فالناس بقيامهم تلك الليالي يثابون بإذن الله تعالى على قيامهم كل ليلة، كيف لا وهم يرجون ليلة القدر أن تكون في كل ليلة، ولهذا كان من سنة النبي صلى الله عليه وسلم الإعتكاف في ليالي العشر من رمضان.

وليلة القدر لاتختص بليلة معينة في جميع الأعوام بل هي تنتقل، أي قد تكون في عام ليلة خمس وعشرين، وفي عام آخر ليلة ثلاث وعشرين وهكذا فهي غير ثابتة بليلة معينة في كل عام. كما سبق ذكره من الأدلة.

فضائل ليلة القدر:

1. أنها ليلة أنزل الله فيها القرآن، قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾.
2. أنها ليلة مباركة، قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾.
3. يكتب الله تعالى فيها الآجال والأرزاق خلال العام، قال تعالى: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾.
4. فضل العبادة فيها عن غيرها من الليالي، قال تعالى: ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾.
5. تنزل الملائكة فيها إلى الأرض بالخير والبركة و الرحمة والمغفرة، قال تعالى: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾.
6. ليلة خالية من الشر والأذى وتكثر فيها الطاعة وأعمال الخير والبر، وتكثر فيها السلامة من العذاب ولايخلص الشيطان فيها إلى ما كان يخلص في غيرها فهي سلام كلها، قال تعالى: ﴿سلام هي حتى مطلع الفجر﴾.
7. فيها غفران للذنوب لمن قامها واحتسب في ذلك الأجر عند الله عزوجل، قال صلى الله عليه وسلم: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» [متفق عليه].

فليلة هذه فضائلها وخصائصها وهباتها، ينبغي علينا أن نجتهد فيها ونكثر من الدعاء والاستغفار والأعمال الصالحة، فإنها فرصة العمر، والفرص لاتدوم، فأي فضل أعظم من هذا الفضل لمن وفقه الله، فاحرصوا رحمكم الله على طلب هذه الليلة واجتهدوا بالأعمال الصالحة لتفوزوا بثوابها فإن المحروم من حرم الثواب، ومن تمر عليه مواسم المغفرة ويبقى محملاً بذنوبه بسبب غفلته وإعراضه وعدم مبالاته فإنه محروم، أيها العاصي تب إلى الله واسأله المغفرة فقد فتح لك باب التوبة، ودعاك إليها وجعل لك مواسم للخير تضاعف فيها الحسنات وتمحى فيها السيئات فخذ لنفسك بأسباب النجاة. فالبدار البدار إلى اغتنام العمل فيما بقي من هذا الشهر، فعسى أن نستدرك به ما فات من ضياع العمر، فيما لا فائدة فيه، فكم نشيع كل يوم ميت، ونودعه وندفنه، فتسال الدموع على الوجنات، ثم ما نلبث أن ننسى ونعود إلى ما كنا عليه من غفلة وضياع، فهذه العشر الأخيرة من رمضان قد تكون آخر ليالي ندركها فالموت بالمرصاد، إن لم يأت اليوم فغداً آت لا محالة، فاستعدوا بالعمل الصالح، والرغبة فيما عند الله تعالى من النعيم المقيم الذي لا يزول ولا يحول، فعلينا بالجهاد الذي لا قتال فيه، ألا وهو جهاد النفس، فنجاهدها نهاراً بالصيام، ونجاهدها ليلاً بالقيام، فمن جمع لنفسه بينهما، ووفى بحقوقهما فهو من الصابرين الذين يوفين أجرهم بغير حساب.

وما أعظم أن يرغم العبد أنفه لربه تبارك وتعالى، بكثرة السجود، وكثرة الركوع، وطول القيام، لمناجاة الخالق جل جلاله، فذلك من أعظم منازل الصبر، أن يصبر الإنسان على طاعة ربه، كيف لا، وهو لم يخلق إلا من أجل العبادة، فلنحرص على أن نتحلى بالصبر على طاعة الله تبارك وتعالى، لأن صلاة التهجد تحتاج إلى ذلك، وفضلها عظيم، فهي فرصة العمر، وغنيمة الزمن، لمن وفقه الله تعالى.